

هل الرجل فعلا يتقدم درجة ...

الدكتور عبد الغني عماد
استاذ العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية

هناك تيار متنام يقول ان الاسلام ساوى بين الرجل والمرأة وبأنه كان بمثابة اضخم ثورة اجتماعية تركت آثارها على اوضاع المرأة العربية ، فاعترف بكامل آدميتها وسلحها بالاستقلال الاقتصادي بأوسع معانيه ، وحررها من ولاية الرجل عليها فيما يتصل بجوهر الحقوق الاساسية للانسان ، بل اشركها ايضا في تدبير شؤون الدين والسياسة على ما ترى امينة السعيد . لكنه مع هذا قدّمه عليها " درجة " كما كان يقول شيخ الاصلاح والنهضة محمد عبده ، وقد عرف " الدرجة " بأنها تعني القيادة والرياسة التي تقتضيها ضرورات توزيع العمل ، فالرجل أحق بالرياسة لانه أعلم بالمصلحة ، مع ذلك كان هذا الرأي حينها يعتبر بحق جريئاً بل ثورياً لانه يصدر عن مفتي ورجل دين وعالم من كبار العلماء في عصره ، ذلك ان " الدرجة " هذه ما كان يقتصر تعريفها في الحدود التي حددها الشيخ رحمه الله .

هذا النوع من المنطق التسويغي ساد في صفوف الاسلاميين ، ولا يزال حتى اليوم . مع تجديدات طفيفة ، وتحسينات شكلية . كان الشيخ محمد الغزالي ، رحمه الله ، يقول ما ألفنا سماعه ، أنّ الاسلام سوى بين المرأة والرجل في جملة الحقوق والواجبات، واذ كان هناك فروق محدودة . فاحتراما لأصل الفطرة الانسانية ، وما يبنني عليها من وظائف . وان كان هناك من مبالغات فهي تقاليد وضعها الناس ولم يضعها رب الناس ، أدت الى بقاء معاملتها كما كانت في ظلمات الجاهلية الأولى ... الى أن هبط مستوى التربية ، ومال ميزان الامة مع التجهيل المتعمد للمرأة ، والانتقاص الشديد لحقوقها .

في بدايات انتسابنا الى الجامعة ، كنا ثلة من الشباب ، لاناخذ على محمل الجد ما يطرحه البعض من افكار جديدة في مجال حقوق المرأة ، كنا نكتفي بذلك المنطق التسويغي للتيار الاسلامي الوسطي والمحافظ . ونجد في ما كتبه ويكتبه رواد هذا التيار بدءا من قاسم امين ورفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي ، وصولا الى محمد الغزالي ومصطفى السباعي ، ما يكفي من التنوير والتجديد في ما ورثناه من مفاهيم حول المرأة .

في الجامعة بدأ الاحتكاك الفكري والتفاعل الثقافي مع تيارات أخرى أكثر جذرية في تناول هذه المسألة ، وكانت بالنسبة الينا محاضرات الشيخ صبحي الصالح في كلية بيروت الجامعية حينها ، والتي بدأها بقول للكاتبة الفرنسية سيمون دو بوفوار : " ان المرأة لاتولد انثى ، ولكن طبيعة الحياة الانسانية تدمغها بطابع الأنثى " ، معتبرا هذا القول تعبيراً صادقا عن الفكر الاسلامي الاصيل قبل تشويه وجهه الجميل . قدّم الشيخ الدكتور يومها تعليلا مفاجئا لنا ، اعتمد فيه الدليل العقلي أكثر من الدليل النقلي . قال يومها ان المرأة في نظر الاسلام انسان كامل قبل ان تكون انثى ، وأن على المرأة أن تقتنع اقتناعا تاما بالمساواة بين الرجل وبينها . فالكتاب والسنة صريحان في هذا الصدد: فكلا الجنسين من طينة واحدة ، ومن اصل واحد، كما عبر القرآن عن ذلك " من نفس واحدة " في مطلع سورة النساء. وكما عبر عن ذلك النبي (صلعم) : انما النساء شقائق الرجال . وكأنه بشرحه للآية على هذا النحو يرى لانتقاء الجنسين الشقيقتين صورة مترابطة متناغمة ، يتكون منها كائن بشري كامل متآلف الاجزاء .

تساءلت وأنا استمع اليه مشككا ، ماذا يقول الشيخ في قصة " الدرجة "؟ وكنت طبعا اقصد تلك الآية الشهيرة في سورة البقرة : " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة " ما كدت أنتهي من هذا التساؤل بيني وبين نفسي ، حتى فوجئت بالشيخ الدكتور يتناول موضوع الدرجة مفصلا فيها قولا كان بالنسبة الينا حينها قولا جديدا وجريئا ، خاصة وانه لايد في هذه الآية من التوفيق بين آخرها وأولها . اذ كيف تكون للرجال درجة عليهن ، مع أن لهن من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات؟

جواب الشيخ كان ان المراد بالدرجة هنا القوامة في الجانب المادي أو الاقتصادي البحت . فهي درجة اضافية مقابل تكليف ينتهي في حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف في محيط الجنس ومحيط الحياة . ان التفاوت في التبعات هو الذي اقتضى تفاوتنا في الميراث وفي القوامة بشكل عام . وان للمرأة حقا يقابل حق القوامة ، هو الأمومة . فهي التي تهب نفسها لحب كبير أو عمل عظيم ، وتتفانى بذلك الى حد المغالاة ، ترتفع الى قمة لا يصل اليها الرجال ، ليس الرجل اكثر استعدادا من المرأة للمشاركة في الحياة العامة ووقرة العمل الا بقدر ما يهيئه النظام لذلك .

كانت لهذه المواقف أهمية كبرى ، ذلك انها ليست صادرة عن شخصية أكاديمية فقط، أو عن رجل دين فقط، بل عن شخصية تجمع بين الثقافة الغربية الواسعة والعلم الديني الشرعي العميق الرؤية ، والاجتهاد الفقهي الجريء والشجاع . كانت محاضرات الشيخ الصالح تستقطب جيلا كاملا من الطلاب الجامعيين الذين يتنافسون على حضورها ، وكانت سببا لنقاشات فيما بيننا ساهمت في تفتيح الازهان وتنوير العقول .

ومنذ ذلك الحين عرفنا خطأ الذهنية الدينية الموروثة عند تقويم وضع المرأة ، وضرورة عدم التفريق بين الآيات التي وردت بحقها في القرآن، ذلك أن الظن بأن ما حصل اثناء حياة الرسول في حق المرأة هو منتهى الامر وأن الأمر انتهى بوفاته، خطأ فادح . ذلك ان تحرير المرأة في الاسلام بدأ في عهد النبي ، لكنه لم ينته بعد.. تلك هي قصة " الدرجة " التي حصرت بالتكليف من جهة، والقدرة على الانفاق والتبعات الناتجة عن ذلك من جهة اخرى . وعليه فكم من رجال اليوم يقدرون على القيام باعباء هذه الدرجة؟